من تراب الطريق ! (٦٩٦)

أزمة الأشياع ! (*)

لا أحب أن أصادر على معتقد أحد ، مهما ركبه الهوى أو اشتط ، فهو وشأنه ، إلاَّ أن يكون من ركَّاب المنابر الصحفية أو الإعلامية بعامة ، الذين يتقدمون إلى الناس بأفكارهم أو آرائهم أو معتقداتهم أو رؤاهم أو مقترحاتهم .. فالسكوت على هذه الممارسات تفريط فى حق البسطاء أو المشغولين بأعباء الحياة عن دراسة خفايا الأضابير ، وما يضمره حقيقة ـ ويزيف لستره ـ أصحاب الأهواء والمآرب والأغراض .

أزمة هؤلاء الأولى ، وهى قد جرفتهم إلى الابتداع والكذب والمخاتلة والتزييف ، أنهم ينحازون لفصيل ، وأحيانًا لشخص ، لا يمكن أن يكون محط قبول ، ناهيك عن أن يكون محط تقدير وإعجاب !

أعرف نفرًا من الإخوان ، الأوفياء لمعتقدهم ، ولكنهم رغم هذا لا يخفون صدمتهم كإخوان فى الدكتور محمد مرسى ، وفى أدائه وأداء من يوجهونه ـ هذا الأداء الذى يعجز الشيطان نفسه عن تبريره أو تمريره أو الدفاع عنه ، ناهيك عن الإعجاب به .. فتلك مصيبة تردى فيها بعض المتصدين للكلمة من الأشياع ، وأورت بأن النفاق قد بلغ مداه ، وأن المغالطة لا تستحى من شىء ، وأن هذا المرض قد أنشب فى هؤلاء حتى أتى على الأخضر واليابس ، ليس فقط فيما يبدونه من مغالطات ، وإنما فى صفحة

(*) المال فى ٢٠١٤/٧/٣١

وجدان المصاب بهذه المحنة ، حتى لم يعد قادرًا على رؤية معقولة يمكن تمريرها أو تبريرها أو الدفاع عنها .

أزمة المشايعين للمشايعة ، بغض النظر عن الحق والباطل ، والخطأ والصواب ـ هى أولاً أزمة مع النفس ، مقدماتها مع شميلة الصدق ، الصدق مع النفس ، والصدق مع الآخرين .. فالصدق سجية مانحة تتفرع عنها شمائل عديدة ، يحب الأسوياء أن يتحلوا بها ، ومن فاته الصدق ، يحب أن يتظاهر أمام الناس به ، ويتحاشى أن يكتشفوا فيه الكذب أو النفاق أو الرياء ، فإذا كان متوثبًا لأداء دور ، حاملاً مهمة الإقناع ، صارت أزمته مضاعفة ، تتخطى إحساسه الداخلى الذى يداريه ويموه عليه ، إلى «**المصداقية**» التى يتعين أن تكون رصيد الراغب فى التأثير والإقناع .

فمن أين يأتى أمثال هؤلاء « بالمصداقية » إذا كانوا قد فقدوا « الصدق » أصلاً ، هل بالمخاتلة والمداورة والخداع ، ولكن هذه أو تلك عمرها قصير، لأنها تفقد الرصيد بتوالى استعمالها وخضوع ما تبثه مع توالى الوقت ـ للمراجعة والنظر ، فلا تطول لهذه الأساليب فرصة ، وينحسر أثرها الزائف مع الأيام !

إن الجهل مرض شفاؤه العلم ، ولكن هؤلاء ليست آفتهم الجهل ، فقد يتوافر لهم العلم الذى يسخرونه للتخديم على مآربهم !

والغىّ مرض شفاؤه الرشد والهداية ، بيد أن هؤلاء لا يسلمون بأنهم غاوون ، وإنما يسعون لإلصاق الغىّ بغيرهم انتصارًا لما يريدون زرعه ـ كذبًا ـ فى نفوس الناس .

أزمة هؤلاء الأشياع ، هى أنهم يعرفون .. يعرفون أنهم على خطأ ، وأنهم يروجون لباطل ، وأن سبلهم الأكاذيب والمفتريات والمخاتلات .. ويعرفون أيضًا أن عمر الأكاذيب قصير .. وعلى قدر هذه المعارف ، وهذه هى المفارقة، على قدر ما يكون إغراقهم ـ عنادًا ومكابرة ـ فى تغليف وتزيين وتجميل الأكاذيب ، وإمعانهم فى إخفاء الحقيقة ، وستر الزيف ، وكلها خصال وضيعة لا يُرْضى العاديين أن تبدو لصيقة بهم فى عيون الناس ، بيد أنهم بدلاً من مغالبتها والعودة للسواء ، يحرفون البوصلة ويمعنون فى الاغتراف من معين الخدع والمخاتلات والتحايلات ، ليصوروا الباطل حقًّا، ويروجوا لمن له أو لهم يتشيعون !!

تابعت كاتبًا صحفيًّا كان معدودًا من كبار الكتاب ، يتقن على الأقل صياغة الحجة ، وتوظيف المنطق ، بيد أنه وقد صارت الأحلام سرابًا ، فقد الاتزان ، وفقد المنطق ، ولما أعوزته الحجة ، بدا كالبهلوان .. يتعامل مع القراء على منطق النعامة دون أن يدرى أنهم يرون من انحراف أمره وبهتان منطقه ما أراد أن يزيف فيه ويخفيه !

ومرَّ بى منافقون ، يشايعون للمشايعة ، يحبون المكابرة للمكابرة ، وتستهويهم المخالفة ، على منطق « خالف تعرف » ، وأمثال هؤلاء لا خطر كبيرًا منهم ، فأمرهم مكشوف ، ولا حجة ولا تأثير لهم ، وهم فى نظر الناس « إمعات » لا يُحسب لهم حساب !

ربما أهمنى حقيقة طائفة من الناس نسيجهم لا عيب فى جذوره ، بيد أنهم مصابون بأسقام أخذتهم بعيدًا عن الرشد والصواب .. ربما لأزمة نفسية ، أو عاطفية ، أو لمشاكل قابلتهم أو عوارض صادفتهم لم يستطيعوا تجاوزها ، أو

ربما لعتبٍ مكتوم على رجاء ضاع فيمن أملوا فيه أو فيهم ، فوقعوا فى براثن الأفكار الملبوسة .. فالعلل التى تصيب النفس لا حصر لها، والاهتداء إلى أسبابها يحتاج فى معظم أو جل الأحوال إلى تدخل متخصص ، يستكشف الأسباب الكامنة ، ويهتدى إلى عللها ، ويشخصها ويضع علاجها الذى غالبًا ما يحتاج إلى رعاية طويلة متيقظة ، مع الصبر والتفطن .

تتنوع الأزمات، بتنوع الأسقام .. منها ما لا شفاء منه ، للتصميم وسبق الإصرار ، ومنها ما قد يرد عليه شفاء .. بيد أن ما لا يمكن التغاضى عنه ، هو ما يمكن أن يكون لهؤلاء وأولاء من تأثير ضار على البسطاء وأنصاف العارفين ..

إن الجماعات مجاميع تتكون من مشارب وخصائص وعادات وقيم ومعتقدات مشتركة من المعايشة والتقارب والتعاطف والتأثير والتأثر ، وهذا الرذاذ الضار الذى يبثه الأشياع خطر إما على قدرة المجتمعات على الاستمرار ، وإما على وجودها نفسه .. وهذا أمر يصعب فى العقل وعلى العقلاء تركه لمشيئة كل فرد يمارسه كيفما يشاء بمقولة إنه جزء من حريته المكفولة فى كل جماعة متحضرة . من مقومات التحضر أن نعرف جميعًا حق الوطن ، وأن يعرف الفرد حدوده فى هذا الإطار .. فلا يتعداها !

* * *